عطيّة الله العظمى

المتقدّم في الكهنة أندراوس ليموشونوك
نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

المحبّة هي أعظم عطيّةٍ يمكن للإنسان أن يتلقّاها في هذا العالم الآنيّ... عندما نكون مثقَلين بجميع أنواع المشكلات التي لا قيمة لها، نُعذِّبُ أنفسنا والآخرين. ولكن ما إن نقف عند قبر أحد أحبّائنا، يفقد كلُّ ما حدثَ أهمّيَّته. كذلك، عندما تكونون مستلقين في وحدة العناية المركّزة، غير عالمين إذا كنتُم ستعيشون، فلن تهتمّوا بالخلافات حول "ما يخصُّني وما يخصُّك"، لأنّ ذلك كلّه يصير غير ضروريّ. إذا كنّا نحيا أمام الله، فما جدوى ما قاله الناس عنكم أو ما كان رأيهم فيكم، أو ما فقدتُم وما كسبتُم؟... الأهمّ هو ألّا نفقد الأبديّة. وإذا كنّا نحيا في الله، فلن نفقدها.

عندما نعود إلى رشدنا وإدراكنا، نعي أنّنا هنا في هذا العالم منفيّون. لقد أُرسِلنا إلى المنفى هنا. صار الإنسان من دون الله فحوَّلَ حياته إلى عملٍ شاقّ. يعاني بعرق جبينه، يعمل من أجل لقمة عيشه، ومع ذلك يفتقر إلى كلّ شيء. يحاول أن يجد أطبّاء اختصاصيّين، وأدوية خاصّة، وأنظمةً تُحسِّنُ الصحّة (والكلّ يريد اليوم أن يُحسِّنَ صحّته)، ولكنّه سيموت على أيّة حال – هكذا هو الأمر. بغضّ النظر عن مدى تعافيك، ستموت عاجلًا أم آجلًا. هذه هي احتمالاتنا من دون الله. ولكن عندما يبدأ الإنسان بالعيش روحيًّا ويتشجّع ويخرج من هذه المستنقعات التي هو غارقٌ فيها، تبرز احتمالاتٌ أخرى. إذا كنّا مؤمنين بحقّ، يمنحنا الله كلّ ما نحتاج إليه. مع ذلك، نخسر الكثير بسبب حماقتنا وخطايانا.

لا داعي لأن تتوهّموا وتبنوا لأنفسكم قصورًا في الهواء، لأنّها لن تصمد. قدِّروا ما تملكونه اليوم، فها نحن في الكنيسة، وأسأل الذين اشتركوا في المناولة: ماذا تريدون بعد؟ إلامَ تحتاجون بعد؟ إلى شوكولا، أو حلوى، أو ليموناضة؟ نعم لدينا كلّ شيء! لقد اقتبلنا كلّ ما يمكن اقتباله في هذه الحياة المؤقّتة – لقد اقتبلنا جسد المسيح ودمه. نحن أغنى من أيّ ملياردير، من أقوياء هذا الدهر، لأنّ المسيح فينا. علينا ألّا نفقد المسيح، وإلّا فلن ننفصل عن الجثّة الميتة النتنة التي سنصبح عليها عاجلًا أم آجلًا بعد الموت. جسدنا سيأكله الدود، وهذا طبعًا ليس أمرًا جميلًا أو رومنسيًّا أو محبَّبًا من الناحية الجماليّة. مهما رغبنا في

تجنُّب هذا الأمر، فلن نتمكّن من ذلك. وأيًّا كان نوع التابوت الذي نُجهّزه لأنفسنا -أكان من خشب السنديان أو خشبٍ آخر- فهو سيَنحلّ.

إنّ الربّ نادى لعازر الرباعيّ الأيّام قائلًا: "اخرج من القبر! اتبعني!" (راجع يوحنّا ١١:٤٣، ومتّى ٢٢:٨)، وخرج من القبر وصار أسقفًا وشهيدًا. يقودنا الربّ بالطريقة نفسها، مدرِكًا أنّنا تحت وطأة مشكلات الحياة، ولا نستطيع تاليًا الهروب ممّا سيحصل غدًا. نفكّر في كيفيّة قضاء العطلة، في كيفيّة تحسين صحّتنا عبر تناول الفيتامينات وأنواع التوت والفواكه. ولكن، في الحقيقة، المسيح يشفينا بمحبّته. وإذا شُفينا بمحبّة المسيح، فسوف نحيا أبديًّا. والباقي سيتبع.

نحن اليوم في الكنيسة، ونعلم أنّها تكون مدرسة ومستشفى وسيّارة إسعاف عندما يسمع الكاهن اعترافنا – وحتّى ربّما وحدة عناية مركّزة. والأهمّ أنّها غذاءٌ لنفوسنا، لنفس الإنسان الخالدة. تخيّلوا فقط لو لم يكن هناك كنيسة... ماذا كنّا سنفعل؟ في السبعينيّات، قالت لي الراهبة سيرافيما اللابسة الإسكيم وقائدة جوقة الكاتدرائيّة، إنّه في العام ١٩٣٧، عندما كانت الكنائس كلّها مغلقة في "مينسك"، كان الناس يذهبون إلى الكنائس المغلقة ويركعون على ركبهم ويقبّلون حجارة الكنيسة. هل تفهمون ما كان الوضع حينذاك؟ مرعبًا! لذلك، علينا أن نُقدّر أنّ الربّ قد منحنا الفرصة لنكون اليوم في الكنيسة، لنشترك في جسد المسيح ودمه، ويُغفَرَ لنا كلُّ سوء فهم، وكلُّ شكوكنا في المناولة المقدّسة (وهي حقًّا مغفورة). وبعدها نمضي قدمًا لا بإحساسٍ بالموت الوشيك، وبأنّنا سندفَن عاجلًا أم آجلًا، بل نمضي للاستعداد لصعودنا.

يمكن أن نقارن أنفسنا بروّاد الفضاء الذين يتحضّرون لرحلة. إلّا أنّ هذه الرحلة، كما تعلمون، ليست سهلة. عليكم أن تتخطّوا جاذبيّة الأرض، وتجعلوا نفسكم وجسدكم وأفكاركم ومشاعركم أخفّ، لتنفصلوا عن جسدكم الميت وتُحلّقوا نحو الربّ، إلى المكان الذي لا يوجد فيه أيُّ شيءٍ سوى محبّة الله، ولن نتجادل فيه إذا كان شيءٌ ملكَكَ أو مُلكي، أو مَن الذي يحبُّ الآخر أكثر، أو مَن يدين للآخر بأكثر. هناك، ستكون محبّة الله كلَّ شيء. هيّئوا أنفسكم لهذه الرحلة! لا نعلم متى سننطلق. ولكنّنا في لحظةٍ ما سنسمع: "هيّا! استعدّ!". ماذا ستأخذون معكم؟ لا شيء! فقط نفسكم الخالدة.

عيدًا مباركًا يا أحبّاء!

* مقتطفاتٌ من عظةٍ أُلقيَت في دير القدّيسة إليزابيت - مينسك في ١٣ حزيران ٢٠٢٤

Source: Archpriest Andrew Lemeshonok (2024). "The Greatest Gift of God", *OrthoChristian.com*. Link.